

Submission date: 17/02/2021

Accepted date: 15/01/2022

DOI: 10.33102/abqari.vol26no1.372

الوزير نظام الملك الطوسي وثورة التعليم السني لتعزيز الأمن الفكري الإسلامي في القرن الخامس
الهجري

*Nizām al-Mulk al-Ṭūsī: The Sunni Educational Revolution and its Impact on the
Enhancement of Islamic Intellectual Security in the Fifth Century AH.*

Souheila Seggani
Universiti Malaya

Souheila_souheila@yahoo.com

الملخص

يتناول هذا البحث الحديث عن الوزير السلجوقي نظام الملك الطوسي وجهوده في حماية الأمن الفكري الإسلامي ومواجهة تحدياته من خلال التطرق إلى تأسيس المدارس النظامية كونها مشروع نهضوي يواجه باستراتيجيته وأهدافه أبرز التحديات التي هددت الأمن الفكري الإسلامي في القرن الخامس الهجري متمثلة في المد الشيعي وظاهرة التطرف الديني. ويهدف هذا البحث إلى بيان دور المؤسسات التعليمية والتربوية في ترسيخ العقيدة الإسلامية الصحيحة والحد من انتشار ظاهري التعصب والتطرف الفكري والديني دعماً للأمن الفكري في القرن الخامس الهجري. استخدمت الباحثة المنهج التاريخي الوصفي حيث تضمن بيان الظروف الدينية والفكرية والأسباب التي دعت إلى تأسيس المدارس النظامية، وكذا المنهج التحليلي في توضيح الرؤى الفكرية والمذهبية التي أنيطت بتلك المدارس. وتظهر نتائج هذا البحث أن الهدف الأساسي من إنشاء المدارس النظامية هو تحقيق أمن فكري إسلامي من خلال إحياء دور السنة في حياة الأمة بالقضاء على الأفكار الشيعية والعمل على تقليص نفوذها ومناهضة كل الفرق المبتدعة من خلال النهوض بالحركة العلمية وتجديدها بما يتوافق مع حقيقة الدين الإسلامي ووسطيته.

الكلمات المفتاحية: الأمن الفكري الإسلامي، الوزير نظام الملك الطوسي، المدارس النظامية، المد الشيعة، التطرف الديني.

Abstract

This research deals with the Seljūk Minister Nizām al-Mulk al-Ṭūsī and his efforts in protecting Islamic intellectual security and facing its challenges by addressing the establishment of *Nizāmiyyah* schools (regular schools), as a renaissance project with the purpose to face the most prominent challenges that threatened Islamic intellectual security in the fifth century (AH), represented by the *Shi'ite* tide and the phenomenon of religious extremism. This research aims to demonstrate the role of educational institutions in establishing the correct Islamic faith and reducing the spread of the phenomenon of intolerance and intellectual and religious extremism in support of intellectual security in the fifth century (AH). This research used both the descriptive historical and analytical approaches. The results of this research show that the main goal for which the *Nizāmiyyah* schools were established is to achieve Islamic intellectual security through reviving the role of the Sunnah in the life of the Ummah by eliminating *Shi'ite* ideas and reducing their influence and also opposing all deviant sects by promoting and renewing the scientific movement in accordance with the reality of the Islamic religion and its moderation.

Keywords: Islamic intellectual security, Minister Nizām al-Mulk al-Ṭūsī, *Nizāmiyyah* schools, *Shi'ite* tide, religious extremism.

المقدمة

إنَّ جلَّ الحضارات الإنسانية تمر بمراحل تاريخية فاصلة في انسياب تيارها، وتحدث تحولات جوهرية في مسارها، والحضارة الإسلامية واحدة من أعظم الحضارات التي سجلت وخلدت في تاريخها أسماء دول ورجال بمسيرتهم وأعمالهم فكانوا طفرة في تحويل مسار الحضارة في مجراها الزماني والمكاني، وتوجوها بالقوة والنصر والمهابة فأضحت في مراحل عدة من سيرورتها محط اهتمام ودراسة وتمحيص لجميع جوانب الحياة الإنسانية فيها، سواءً العلمية، السياسية، الاقتصادية، أو العسكرية.

وفي طيات إحدى تلك المراحل التاريخية وفي حقبة زمنية متميزة ظهر السلاجقة في المشرق الإسلامي وخراسان (447هـ-656هـ) فمثلوا القوة الإسلامية الجديدة من خلال اكتساب صفة الشرعية التي أقرها لهم الخليفة العباسي، وأعطوا للإسلام السني قدسيته وانتعاشه من جديد في حياة المجتمع والأمة. وميول السلاجقة السنية

لم تكن مجرد صفة ظاهرية رمزية كما وصفها المغرضون بل حقيقة أثبتت صدقها وواقعيتها من خلال الإسهامات الجوهريّة والجهود الجبارة التي قاموا بها من رفع راية الإسلام السنيّ ومحاربة التيارات الهدامة المهتدة للعقيدة والفكر والخلافة متمثلة على وجه الخصوص في الحركة الباطنية الإسماعيلية، ولقد برزت قوة سياسة السلاجقة في القيام بهذا الدور من خلال شخصية أبرز رجالها وهو نظام الملك الطوسي، الذي أيقن بحكمته وحنكته السياسية أن المواجهة لا بد أن تتصف بالشمولية والواقعية، ولا تكتفي بالجانب المادي فقط في شكله العسكري والأمني، وإتّما وجب اتباعها وربطها بمشروع ثقافي، واستراتيجية نهضوية إصلاحية تبناها الدولة، وتعمل على تطبيقها واقعا ملموسا، وتُشرف على مسيرتها وتُقيم نتائجها ونجاحاتها، فأثمرت نظرته تلك عن ميلاد مشروع تعليمي جديد تمثل في إنشاء المدارس "النظامية" في حواضر العالم الإسلامي ببغداد ونيسابور وأصفهان وغيرها من مناطق النفوذ والسيطرة السلجوقية. فقامت الدولة بدورها من رعاية واهتمام و صرف أموال ضخمة، وقام علماءها أيضا بالدور المنوط بهم في مواجهة الفرق الضالة بتبيين شبهاتها وأباطيلها وأهدافها، والبحث على نشر الوعي المجتمعي حول أخطارها على الأمن الفكري والوطني للأمة الإسلامية.

الوزير نظام الملك (مولده، استوزاره، حبه للعلم، وفاته)

نظام الملك من المولد إلى الوزارة

هو أبو علي الحسن بن علي بن إسحاق الطوسي، الملقب بقوام الدين، ولد يوم الجمعة الحادي والعشرين من ذي القعدة سنة ثمان وأربع مائة بطوس، "وكان من أولاد الدهاقين الذين يعملون في البساتين بنواحي طوس فحفظه أبوه القرآن وشغله في التفقه على مذهب الشافعي. ثم خرج من عند أبيه إلى غزنة وخدم في الديوان السلطاني ورفت به الأحوال سفرا وحضرا، وخدم في الدواوين بخراسان وغزنة واختص بأبي علي بن شاذان وزير السلطان ألب رسلان فلما حانت وفاة ابن شاذان أوصى ألب أرسلان به وذكر له كفاءته وأمانته فنصبه مكانه في الوزارة" (Al-Subkī, 1413h).

وذكر الهجري (2008) في كتابه قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر أن أول اتصال له بالسلاجقة كان مع داوود بن ميكائيل والد السلطان ألب أرسلان فقال: "ثم اتصل بخدمة علي بن شاذان المعتمد عليه بمدينة بلخ، فكان يكتب له، ثم قصد داود بن ميكائيل السلجوقي والد السلطان ألب أرسلان، فظهر له منه النصح

والمحبة، فسلمه إلى ولده المذكور وقال: اتخذه والدا، ولا تخالفه فيما يشير به، فلما توفي داود، وملك ولده المذكور.. دبر نظام الملك أمره فأحسن تدبيره، وأحيا السنة، وأمات البدعة التي كانت في أيام الوزير عميد الملك، وبقي في خدمته عشر سنين، ثم توفي ألب أرسلان المذكور، فازدحم أولاده على الملك، ثم آل أمر المملكة لولده ملك شاه، فصار الأمر كله للنظام، وليس للسلطان إلا التخت والصيد، فأقام على ذلك عشر سنين".

غير أن الذهبي (2006) يؤكد ما جاء في طبقات الشافعية فقال: "خدم بغزنة، وتنقلت به الأحوال إلى أن وزر للسلطان ألب أرسلان، ثم لابنه ملكشاه، فدبر ممالكة على أتم ما ينبغي، وخفف المظالم، ورفع بالرعايا، وبنى الوقوف، وهاجرت الكبار إلى جنابه، وازدادت رفعتة، واستمر عشرين سنة".

لقبه السلطان ألب أرسلان بـ"قوام الدين نظام الملك صدر الإسلام شمس الكفاة سيد الوزراء رضي أمير المؤمنين" (Ibn Al-Omrānī, 2001) ولقبه السلطان ملكشاه بـ"خواجه بزرگ" (Al-Tartūshī, 1872) و"أتابك"، ولم يلقب وزير غيره في التاريخ العباسي، فكان شخصية فذة جمعت بين صلاح الدين وحسن السياسة.

ظلّ يعمل مع السلطان ألب أرسلان وزيرا ومساعدة لمدة تسعة أعوام ونصف، دبر له فيها الملك أحسن تدبير، فكان سياسيا بارعا، وقائدا محنكا، خاطب ألب أرسلان مفتخرا بجيشه قائلا: "أيها الملك لا تخف، فإني قد استدمت لك جندا ما بارزوا عسكريا إلا كسروه، كائنا ما كان. قال له الملك: من هم؟ قال: جند يدعون لك وينصرونك بالتوجه في صلواتهم وخلواتهم، وهم العلماء والفقراء الصلحاء. فطابت نفس الملك بذلك" (Ibn Kathīr, 1986)، وبذلك يقدم لنا مفهوما راقيا عن صفة لا بد من توفرها في الحاكم ألا وهي الرحمة بالرعية والإحسان لضعيفهم بسماع همومهم وتحسس احتياجاتهم وإكرام العلماء إرضاء لله ونصرة للدين، مما يولد محبة في النفوس فترتفع الأيدي داعية له بالخير والصلاح والتوفيق.

وقد ظهرت قوة نظام الملك وبرزت شخصيته وإمكاناته العلمية والسياسية بعد وفاة السلطان ألب أرسلان وابتداء الصراع في البيت السلجوقي، فأيد ابنه الأكبر ملكشاه وأزره فتقلد زمام السلطة بعد والده وهو ابن عشرين عاماً، واستوزر الأخير نظام الملك الذي كان حكيماً محنكاً، وعالماً ناضجاً بأمر الدولة وخبر السلاطين والحكام، فكانت صلاحياته غير محدودة وسلطته واسعة النفوذ، ووزارته ليست وزارة فقط بل هي في حقيقتها فوق السلطنة، فصارت الأمور كلها إليه وهو الأمر والنهي فيها ولا يجري أمر جليل أو حقير إلا بمشورته وأمره.

فكان من نتاج هذه الثقة والاحترام والتقدير من قبل ملكشاه لنظام الملك أن أضحت الدولة السلجوقية في عهده دولة مترامية الأطراف شمل سلطانها جزءاً كبيراً من بلاد الروم والشام، وبلاد ما وراء النهر وبلاد الهياطلة، وباب الأبواب، وشمل نفوذها منطقة كرمان وآسيا الصغرى، فبلغت بحدودها من البحر الأسود شمالاً إلى الخليج الفارسي جنوباً، ومن الهند والصين شرقاً إلى البحر المتوسط غرباً، وأصبحت من أكبر القوى في العالم آنذاك.

وأما عن علاقاته بالخلفاء العباسيين فقد كان يجلب الخليفة ويحترمه، وكانت علاقته بالخليفة المقتدي بالله أشد احتراماً وثقة من علاقة السلطان بالخليفة فكان أكثر تعظيماً له، وكان الخليفة أيضاً يحترمه ويجله، وقد دخل النظام على المقتدي يوماً "فأذن له في الجلوس بين يديه وقال له: يا حسن رضي الله عنك برضا أمير المؤمنين وأهل الدين عنك" (Ibn Kathīr, 1986). (Abū Shāma, 1997). (1997).

حبه للعلم واحترامه للعلماء

اشتغل نظام الملك في ابتداء أمره بالحديث والفقه، فسمع الحديث وأسمعه، وكان يقول: "إني لأعلم بأني لست أهلاً للرواية ولكني أحب أن أربط في قطار نقلة حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم" (Ibn Kathīr, 1986). فسمع "الكثير من أبي القاسم القشيري وأبي حامد أحمد بن الحسن الأزهري وأبي منصور شجاع ابن علي المصقلي وغيرهم، روى عنه أبو

محمد الحسن بن أبي المظفر السمعاني وعلي بن طراد الزينبي والحافظ أبو القاسم إسماعيل بن محمد بن الفضل الأصفهاني وغيرهم" (Ibn Al-Athīr, n.d).

"وكان مجلسه عامرا بالفقهاء والعلماء، بحيث يقضي معهم غالب نهاره، فقبل له: إن هؤلاء شغلوك عن كثير من المصالح، فقال: هؤلاء جمال الدنيا والآخرة، ولو أجلستهم على رأسي لما استكثرت ذلك، وكان إذا دخل عليه أبو القاسم القشيري وأبو المعالي الجويني قام لهما وأجلسهما معه في المقعد، فإذا دخل أبو علي الفارندي قام وأجلسه مكانه، وجلس بين يديه، فعوتب في ذلك فقال: إنهما إذا دخلا عليّ قال: أنت وأنت، يطروني ويعظموني، ويقولوا في ما ليس في، فأزداد بهما ما هو مركز في نفس البشر، وإذا دخل عليّ أبو علي الفارندي ذكرني عيوي وظلمي، فأنكسر فأرجع عن كثير من الذي أنا فيه." (Ibn Al-Jawzī, 1992 Abū Al-
Muzaffar, 2013)

وقد "أقبل بكليته على مراعاة حملة الدين، فبنى دور العلم للفقهاء وأنشأ المدارس للعلماء، وأسس الرباطات للعباد والزهاد وأهل الصلاح والفقراء، ثم أجرى لهم الجرايات والكسي والنفقات، وأجرى الخبز والورق لمن كان من أهل العلم مضافا إلى أرزاقهم، وعم بذلك سائر أقطار مملكته، فلم يكن من أوائل الشام وهي بيت المقدس إلى سائر الشام الأعلى وديار بكر والعراقين، وخراسان بأقطارها إلى سمرقند من وراء نهر جيحون مسيرة زهاء مائة يوم، حامل علم أو طالبه أو زاهد أو متعبد في زاويته إلا وكرامته شاملة له سابقة عليه" (Al-Tartūshī, 1872).

وفاته

توفي نظام الملك مقتولا يوم الخميس العاشر من رمضان سنة 485هـ، حيث "صلى المغرب في هذه الليلة وجلس على السماط وعنده خلق كثير من الفقهاء والقراء والصوفية وأصحاب الحوائج، فجعل يذكر شرف المكان الذي نزلوه من أرض نهاوند، وأخبار الواقعة التي كانت به بين الفرس والمسلمين في زمان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه، ومن استشهد هناك من الأعيان ويقول طوبى لمن لحق بهم، فلما فرغ من إفطاره خرج من مكانه قاصدا مضرب حرمه، فبدر إليه حدث ديلمي كأنه مستميح أو مستغيث فعلق به وضربه وحمل إلى مضرب الحرم.

فيقال إنه أول مقتول قتله الإسماعيلية، فانبث الخبر في الجيش وصاحت الأصوات، وجاء السلطان ملكشاه حين بلغه الخبر مظها الحزن والنحيب والبكاء، وجلس عند نظام الملك ساعة وهو يجود بنفسه حتى مات، فعاش سعيدا ومات شهيدا فقيدا حميدا. وكان قتله قد تعثر بأطناب الخيمة فلحقه ممالك نظام الملك وقتلوه، وقال بعض خدامه: كان آخر كلام نظام الملك أن قال: لا تقتلوا قاتلي فإني قد عفوت عنه وتشهد ومات" (Al-Subkī, 1413h). وحُمل إلى أصفهان حيث دفن هناك في محلة له.

الوزير نظام الملك وثورة التعليم السني لتعزيز الأمن الفكري: المدارس النظامية (تأسيسها، أهدافها، سماتها وعوامل نجاحها)

لقد تميز الوزير نظام الملك بنظرته الشاملة والدقيقة لمجريات الأحداث آنذاك سواء السياسية منها أم الفكرية، وكان ذا بصيرة محدقة ومدركة للخطر الذي يهدد كيان الإسلام باعتباره دين سماوي منزه عن كل شطط أو غلو وتطرف في العقيدة، ويهدد كيان الخلافة باعتبارها رمزا دينيا لعامة المسلمين وكيانا سياسيا يمثل دولة الإسلام، ذلك الخطر الكامن آنذاك في المذهب الشيعي عامة والفرع الإسماعيلي خاصة، فبالرغم من سقوط دولة البويهيين وفشل المذهب الشيعي في إقامة سلطان له، إلا أنه استطاع أن يحقق نجاحا ملحوظا من الناحية الثقافية، وأن يستقطب عددا غير قليل من الأتباع وتوظيفهم بشكل خاص كدعاة له في أقطار شتى من الإمبراطورية الإسلامية بأساليب متنوعة وطرق ملتوية تمهيدا لتحقيق الحلم المنشود في استعادة الخلافة.

لقد اضطر نظام الملك -وفقا للظروف المذهبية والفكرية وما تميزت به من عصبية في تلك الحقبة الزمنية- أن ينحى منحى آخر ليُثبِت المذهب السني ويُدعم الأمن الفكري والوطني للعالم الإسلامي، فعمل على بناء الشخصية الإسلامية وفقا للمصطلح الحديث بناءً علميا رصينا على أسس وضوابط شرعية، بغية وقاية الفكر من أية انحرافات وحفظا للعقيدة من أي زيغ وشبهات، وإحياء لصحوة إسلامية سنية في ذلك العهد، باعتبار أن الجانب الفكري والعقدي أساس بناء الإنسان والحضارة (Hocini, M. A., et al, 2020)

ووفقا لهذه النظرة كان لزاما أن يضع استراتيجية لمشروع نهضوي إصلاحي، مشروع ذي دوافع قوية وخطة مدروسة، وأساليب تطبيقية وأهداف واضحة محددة، فنجح نجاحا عظيما في تحقيق نهضة مجتمعية شاملة وذلك بتأسيس المدرسة الأم في بغداد سنة 459هـ والتي سميت باسمه "المدرسة النظامية"، ليثمر نجاحها فروعاً أخرى على شاكلتها بعدة مناطق أخرى من أقطار العالم الإسلامي.

أسباب بناء المدارس النظامية وأهدافها

لقد كان تأسيس المدارس النظامية نتيجة حتمية عكستها الظروف الدينية والفكرية في ذلك العصر، واستجابة للتحديات التي هددت المنظومة العقائدية والثقافية للأمة الإسلامية آنذاك، متمثلة في المد الشيوعي الإسماعيلي وانتشاره واستفحال خطره، وكان هذا التأسيس في حقيقته نابعا من فكر نظام الملك وإيمانه التام بضرورة مقاومة الشيعة الإمامية والإسماعيلية مقاومة فكرية، تكون موازية من جهة للمقاومة السياسية التي لم يكتب لها النجاح الكبير، ومن جهة أخرى للنشاط الفكري الكبير الذي تميزت به الدعوة الباطنية ومدى انتشارها بوسائل فكرية متعددة، فكان لزاما أن يكون هناك نشاط سني مماثل، يكون في نفس مستوى الحجّة والبرهان.

لقد توسع النشاط الشيوعي الإسماعيلي في تلك الحقبة من خلال الدور الذي قاموا به للترويج لمذهبهم والدعاية له عن طريق بناء مؤسسات تعليمية تتولى ذلك (Fayyad-Abdullah, 1972)، وتعمل على نشر عقائدهم، وقد سبق هذا النشاط التعليمي للإمامية شكل مغاير قبل القرن الرابع والخامس الهجريين حيث كانوا ينشرون عقائدهم في بيوتهم ومجالسهم ومساجدهم التي كانت داخل منازلهم، فقامت المساجد بدور بارز في تنظيم حلقات للتعليم، ثم جعل الفاطميون ووزراؤهم مجالس منتظمة تعقد في قصورهم يترأسها داعي الدعاة أو الوزير للدعاية للمذهب الجديد.

ثم تطورت هذه الجهود صوب إنشاء مؤسسات خاصة بنشر العقيدة والفقہ الإسماعيلي، ولعلّ من أبرز تلك المؤسسات المتمثلة في دور الكتب ودور العلم والتي ظهرت إبان الحكم البويهّي، دار الكتب التي بناها عضد الدولة بشيراز والتي يصفها لنا شاهد عيان وهو المقدسي بقوله: "وبني بشيراز دارا لم أر في شرق ولا غرب مثلها، ما دخلها عامّي إلا افتتن بها، ولا عارف إلا استدللّ بها على نعمة الجنة وطبيها، فرّق فيها الأنهار ونصب عليها القباب وأحاط بالبساتين والأشجار، وحفر فيها الحياض، وجمع فيها المرافق والعدد، وسمعت

رئيس الفراهين يقول: فيها ثلاثمائة وستون حجرة ودارا، كان مجلسه كلّ يوم واحدة إلى الحول وهي سفلى وعلو، وخزانة الكتب حجرة على حدة عليها وكيل وخازن ومشرف من عدول البلد، ولم يبق كتاب صنّف إلى وقته من أنواع العلوم كلّها إلّا وحصله فيها، وهي أزج طويل في صفة كبيرة فيه خزائن من كلّ وجه، وقد ألصق إلى جميع حيطان الأزج والخزائن بيوتا طولها قامة في عرض ثلاثة أذرع من الخشب المزوّق، عليها أبواب تنحدر من فوق والدفاتر منصّدة على الرفوف، لكلّ نوع بيوت وفهرستات فيها أسامي الكتب لا يدخلها إلّا وجهه....." (Al- Maqdisī, 1991).

وسار على أثره كاتبه أبو علي بن سوار الذي أنشأ دار كتب بالبصرة ومدينة رامهرمز، يقول المقدسي: "وبها دار كتب كالتي بالبصرة، والداران جميعا أخذها ابن سوار، وفيهما إجراء على من قصدهما ولزم القراءة والنسخ، إلّا أن خزانة البصرة أكبر وأعمر وأكثر كتباً، وفي هذه أبدا شيخ يدرس عليه الكلام على مذاهب المعتزلة." (Al- Maqdisī, 1991).

كما بنى أبو نصر سابور بن أردشير وزير بقاء الدولة البويهية سنة 383هـ بيتا بالكرخ بمثابة دار للعلم، "وجعل فيها أكثر من عشرة آلاف مجلد، وقيمت إلى أن احترقت عند مجيء طغرل بك إلى بغداد سنة خمسين وأربعمائة" (Ibn Al-Athīr, 1997).

"ووقفها على أهله، ونقل إليها كتباً كثيرة ابتاعها وجمعها وعمل لها فهرستا ورد النظر في أمورها ومراعاتها والاحتياط عليها إلى الشريفيين أبي الحسين محمد بن الحسين بن أبي شيبّة، وأبي عبد الله بن محمد بن أحمد الحسني، والقاضي أبي عبد الله الحسين بن هارون الضبي، وكلّف الشيخ أبا بكر محمد بن موسى الخوارزمي فضل عناية بها." (Ibn Al-Jawzī, 1992).

ويذكر لنا ابن الجوزي (1992) أن دار سابور تعرضت للحرق والنهب مما دعا أبا الحسن بن هلال الصابي سنة 452هـ أن يوقف دارا بشارع أبي عوف الواقع غربي مدينة السلام، ونقل إليها ما يقارب ألف كتاب خشية ذهاب العلم.

ويُذكر أيضا أن دار سابور كانت بمثابة مؤسسة علمية تؤدي دورها في التعليم وكانت ذات شهرة واسعة في البصرة، "و ذات موارد كبيرة لكثرة الأوقاف التي حبست عليها، ومن المحتمل أن قسما من وارد الوقف المذكور يصرف لأغراض تعليمية؛ لأن الأصل في الوقف أن يكون لأغراض دينية وأن تعليم علوم آل البيت وتعلمها يقعان في صميم الأغراض المذكورة. فضلا عما سبق فإن الدار المذكورة عمرت طويلا أي حوالي سبعين عاما، ونشأت في عصر أخذ التعليم فيه ينتقل من المساجد إلى المؤسسات الجديدة أمثال دور الكتب ودور العلم". (Fayyad-Abdullah, 1972)

وعلق كوركيس عواد (1986) عن دور هذه الدار فقال: "وكانت هذه الدار مؤثلا للعلماء والباحثين، يترددون إليها للدرس والمناظرة والمباحثة ومن أشهر روادها الشاعر الفيلسوف أبو العلاء المعري، المتوفي سنة 449هـ، فقد طالما ذكرها وذكر بعض القائمين عليها، وآثر الإقامة بها يوم كان ببغداد. وكان جماعة من العلماء يهبون مؤلفاتهم لهذه الخزانة".

وكانت هناك داران للعلم بالبصرة زمن البويهيين غير ما ذكر، غير أنها أحرقت في إحدى هجمات الأعراب على البصرة سنة 483هـ بعد وفاة عضد الدولة الذي كان يشرف على رعايتهما، فكانت إحداها وقفا قبل عهد عضد الدولة وهي أول دار علم أوقفت في الإسلام، والأخرى كانت تحتوي على أعيان الكتب ونفائسها وقد أوقفها الوزير أبو منصور بن شاه مردان. (Ibn Al-Athīr, 1997)

كذلك اتخذ الشاعر الإمامي المعروف نقيب الطالبين الشريف الرضي أبو القاسم علي بن الحسن دارا سماها دار العلم بمدينة بغداد، ويذكر لنا الدكتور فياض أن الطلبة كانوا يدرسون ويسكنون بها وقد وفر لهم كل ما يحتاجون إليه وكانت نفقتهم على صاحب الدار. (Fayyad-Abdullah, 1972)

كما كان أئمة الشيعة الإمامية إضافة -إلى دور العلم وخزائنها- يعقدون مجالس الدعوة لمذهبهم في مساجدهم التي دفن فيها أئمتهم أو في بيوتهم الخاصة، ومثال ذلك ما ذكره ابن الجوزي عن شيخ الإمامية وعالمها المفيد محمد بن محمد بن النعمان الذي كان له "مجلس نظر بداره بدرب رياح يحضره كافة العلماء، وكانت له منزلة عند أمراء الأطراف، لميلهم إلى مذهبه". (Ibn Al-Jawzī, 1992)

كما اهتم أبو جعفر الطوسي بالعلم والتعليم وكان لاهتمامه ونشاطه أثره البالغ في الفقه والحديث لدى الشيعة الإمامية، فبعد أن هوجمت داره ونُهبت محتوياتها وأحرقت كتبه غير مرة جزاء الحملة التي شنتها السلطة السلجوقية على الشيعة في بغداد سنة 448هـ، فرّ إلى النجف واستقر بها وواصل بها نشاطه التعليمي فأملَى على طلبته بمشهد النجف العديد من الدروس التي جمعها في كتابه المعنون بالأُمالي، وهو صاحب التفسير الكبير في عشرين مجلدا (Ibn Taghrī- Birdī, n.b)، وألّف عدة كتب في الفقه والحديث احتلت مكانا بارزا في الدراسات الشيعية كالتهذيب والاستبصار وغيرها.

وإن كانت هذه بعض جهود الإمامية فإن جهود الإسماعيلية للترويج والدعاية لمذهبهم فاقت تلك الجهود بمراحل، حيث أنشأوا مؤسسات تعليمية تُعنى بنشر مذهبهم وخدمته في ظل الدولة الفاطمية، ففي سنة 359هـ أنشأ الجامع الأزهر، "وأجرى العزيز بالله جماعة من الفقهاء يحضرون مجلس الوزير (يعقوب بن كلس) ويلازمونه أرزاقا تكفيهم في كلّ شهر، وأمر لهم ببناء دار إلى جانب الجامع الأزهر، فإذا كان يوم الجمعة تحلقوا فيه بعد الصلاة إلى أن تصلّى صلاة العصر، وكان لهم من مال الوزير أيضا صلة في كلّ سنة، وعدّتهم خمسة وثلاثون رجلا". وأنشأ الحاكم بأمر الله دار الحكمة للهدف ذات سنة 395هـ "وحملت الكتب إليها من خزائن القصور، ودخل الناس إليها وجلس فيها القراء والفقهاء والمنجمون والنحاة وأصحاب اللغة والأطباء، وحصل فيها من الكتب في سائر العلوم ما لم ير مثله مجتمعا، وأجرى على من فيها من الخدام والفقهاء الأرزاق السنوية، وجعل فيها ما يحتاج إليه من الحبر والأقلام والمحابر والورق". (Al-Maqrīzī, 1418h)

"ولما تولى يعقوب بن كلس الوزارة للعزيز بالله نزار بن المعز رتب في داره العلماء من الأدباء والشعراء والفقهاء والمتكلمين، وأجرى لجميعهم الأرزاق، وألّف كتابا في الفقه و نصب له مجلسا وهو يوم الثلاثاء يجتمع فيه الفقهاء وجماعة من المتكلمين وأهل الجدل، وتجري بينهم المناظرات، وكان يجلس أيضا في يوم الجمعة فيقرأ مصنّفاته على الناس بنفسه، ويحضر عنده القضاة والفقهاء والقراء والنحاة وأصحاب الحديث ووجوه أهل العلم والشهود، فإذا انقضى المجلس من القراءة قام الشعراء لإنشاد مدائحهم فيه، وجعل للفقهاء في شهر رمضان الأظعمة، وألّف كتابا في الفقه يتضمن ما سمعه من المعز لدين الله ومن ابنه العزيز بالله، وهو موبّ على أبواب الفقه يكون قدره مثل نصف صحيح البخاري، ملكته ووقفت عليه، وهو يشتمل على فقه الطائفة الإسماعيلية،

وكان يجلس لقراءة هذا الكتاب على الناس بنفسه وبين يديه خواص الناس وعوامهم وسائر الفقهاء والقضاة والأدباء، وأفتى الناس به ودرّسوا فيه بالجامع العتيق". (Al-Maqrīzī, 1418h)

فالنشاط الدعوي الفاطمي في مختلف مراحل تكوينه وحراكه السياسي والفكري قد ارتبط ارتباطا كبيرا بالتعليم والتأطير، وظهرت بواكير مدارسهم الأولى في أرض السواد حيث هناك كان الدعاة يقومون بتجهيز المؤمنين بالدعوة الإسماعيلية وتثقيفهم ثقافة مذهبية واسعة تمكنهم من نشر المذهب الإسماعيلي في مناطق الشرق الإسلامي وكل البلاد الإسلامية.

وفي خضم تلك الجهود الفكرية الجبارة للدعاة الإسماعيليين كانت المدارس النظامية ضرورة حتمية فرضتها قوة رواج المذهب الإسماعيلي واستفحال خطره السياسي والفكري، وفي ذلك الحين لم تكن هناك أي "مؤسسات تعليمية تخضع لسيطرة أو إشراف خلافتي رسمي من قبل العباسيين تدرس مناهج لمقاومة أي مد شعبي معارض للحكم العباسي إلا بعد سيطرة السلاجقة الأتراك". (Siddīq, 2015)

ومن خلال ما سبق ذكره فإن بناء المدارس النظامية لا يعد بداية التعليم المدرسي في الحضارة الإسلامية فقد سبق النظاميات مدارس متعددة عنيت بالتعليم فقط، لكن النظاميات تعتبر بداية تحولات كبيرة في مسار التعليم سواء من حيث الإشراف والأهداف أو من حيث الأطر التعليمية والمدرسين.

ويبرز لنا بوضوح أن الهدف الرئيسي من وراء إنشاء المدرسة النظامية أو النظاميات يتمثل في مواجهة المد الإسماعيلي والقضاء عليه، عن طريق مواجهة فكرية تثقيفية تعمل على إحياء السنة في حياة العامة والخاصة وفق استراتيجية تعليمية محددة من قبل السلطة السلجوقية، متمثلة في شخص الوزير نظام الملك وبتأييد من الخلافة العباسية.

كما يندرج تحت هذا الهدف أهداف فرعية أخرى تتمثل في تأطير طائفة من الطلبة تأطيرا علميا سنيا يؤهلهم إلى رتبة معلمين يدرسون المذهب السني في شتى أقطار العالم الإسلامي لمقاومة الدعاية الشيعية الإسماعيلية، وأيضا تجهيز طائفة أخرى من السنة الأكفاء الثقات لإشغال مناصب إدارية في الدولة خاصة القضاء وإدارة الدواوين وهذا ما يثبتهُ أبو إسحاق الشيرازي في قوله: "لما خرجت في رسالة الخليفة إلى خراسان، لم أدخل

بلدا ولا قرية إلا وجدت قاضبها، أو خطيبها، أو مفتيها، من تلامذتي". (Ibn 'Imād Al-Ḥanbalī, 1986)

سمات المدارس النظامية

إن مما ميز المدرسة النظامية عما سبقها من مدارس كونها أول مدرسة تقام بعاصمة الخلافة بغداد في حين نجد أن باقي المدارس التي أنشأت من قبل كانت خارج العراق، إضافة إلى ما أقره السبكي كون نظام الملك أول من قدر المعاليم للطلبة واسترسل بقوله: " فإنه لم يتضح لي هل كانت المدارس قبله بمعاليم للطلبة أو لا والأظهر أنه لم يكن لهم معلوم" (Al-Subkī, 1413h) ، في حين يذكر المقرئزي أيضا أن المدرسة النظامية أول مدرسة "قرّر بها للفقهاء معاليم" (Al-Maqrīzī, 1418h) ، غير أن هذا القول يبدو مناقضا لما أورده في النص المذكور سابقا حين قال: "ولما تولى يعقوب بن كلس الوزارة للعزیز بالله نزار بن المعز رتب في داره العلماء من الأدباء والشعراء والفقهاء والمتكلمين، وأجرى لجمعهم الأرزاق (Al-Maqrīzī, 1418h)، ونقف أيضا على عدة نصوص تاريخية تذكر أنه كان للفقهاء معاليم قبل زمن نظام الملك منها ما أورده صاحب خطط الشام في قوله: "وكان ألب أرسلان إذا رأى في بلد رجلاً متميزاً متبحراً في العلم بنى له مدرسة ووقف عليها وفقاً وقرر فيها للفقهاء معاليم وجعل فيها دار كتب". (Karad Ali, 1983. Al-Aṣfahānī, 2004).

ويعلق جرجي زيدان (n.d.) على هذه الملحوظة بقوله: " فلعل السبب في اشتها أسبقية نظام الملك في إنشاء المدارس الإسلامية أنه أول من بنى مدرسة كبرى في بغداد، وجعل التعليم فيها مجانياً، وفرض لتلامذتها الأرزاق والجواري والمعاليم".

ولا بد من التنبيه أيضا إلى ما ذكره جورج مقدسي (2015) حول المرحلة الانتقالية الكبرى في تاريخ نشأة المعاهد والمدارس في العالم الإسلامي، ففي طيات حديثه عن دور بدر بن حسنويه الذي أسهم في تحديث نموذج من المؤسسات والذي تميز بطابع الدوام والاستمرارية وسمه الانتشار على حد تعبير مقدسي، "فقد أقام بدر في شتى أنحاء الأقاليم التي كانت تخضع لولايته ثلاثة آلاف مجمع للمساجد -الخانات-، والتي كانت بمثابة مدارس -مساجد- تجاورها خانات للطلبة الوافدين من خارج المدينة، ويؤكد ابن الجوزي (1992) هذا

بلفظ استحدث حيث قال: "وكانت جراياته وصدقاته متصلة على الفقهاء والأشرف والقضاة والشهود والأيتام والضعفاء.... واستحدث في أعماله ثلاثة آلاف مسجد وخان للغرباء. (Ibn Imād Al-Hanbalī, 1986)

ويؤكد مقدسي (2015) أن بدر كان له الأسبقية فيما يتعلق بتوفير السكن للطلبة كما يميل للقول بأن تلك الخانات كانت توفر للطلبة المأوى والمأكل أيضاً، واستمر الحال على هذا المنوال إلى أن تحول المسجد وخانها في بغداد إلى مدرسة مستقلة عنه، وهي التي أنشأها نظام الملك وصارت الأمثال تضرب بصنيعها وحسنها.

إذن فأهم ميزة تميز بها مشروع التعليم عند نظام الملك هو الموقع الجغرافي الذي أقرّه لإنشاء مدرسته الأم وهي بغداد عاصمة الخلافة، وكان مقرها الرئيسي بشرق بغداد في وسط أعظم أسواقها وهو سوق الثلاثاء (Ibn Battūta, 1417h) ثم جعلها مدرسة نظامية أنشأت من قبل الدولة بشكل قانوني، وتشرف على توفير كل حاجياتها من مستلزمات التدريس وتعيين المدرسين وتوفير السكن للطلاب إضافة إلى صرف رواتب شهرية لهم.

ويصف لنا الرحالة ابن جبير (1979) المساجد والمدارس ضمن حديثه عن دار الخلافة بالشرقية فيقول: "وأما المساجد بالشرقية والغربية فلا يأخذها التقدير فضلا عن الإحصاء، والمدارس بما نحو الثلاثين وهي كلها بالشرقية وما منها مدرسة إلا وهي يقصر القصر البديع عنها، وأعظمها وأشهرها النظامية وهي التي ابتناها نظام الملك وجددت سنة أربع وخمسمائة، ولهذه المدارس أوقاف عظيمة وعقارات محبسة تتصير إلى الفقهاء المدرسين بها، ويجرون بها على الطلبة ما يقوم بهم، ولهذه البلاد في أمر هذه المدارس والمؤسسات شرف عظيم وفخر مخلد، فرحم الله واضعها الأول ورحم من تبع ذلك السنن الصالح".

ومما يدل أيضاً أنه لم تكن سابقة لمعاليم الطلبة غير نظام الملك ما ذكره حاجي خليفة (1941) عن موقف علماء ما وراء النهر فقال: "لما بلغهم بناء المدارس ببغداد، أقاموا مأتم العلم، وقالوا: كان يشتغل به أرباب الهمم العلية، والأنفس الركيبة، الذين يقصدون العلم لشرفه، والكمال به، فيأتون علماء ينتفع بهم وبعلمهم،

وإذا صار عليه أجرة تداني إليه الأخصاء، وأرباب الكسل، فيكون سببا لارتفاعه، ومن ها هنا هجرت علوم الحكمة، وإن كانت شريفة لذاتها".

ولقد تلت المدرسة النظامية ببغداد عدة مدارس أخرى في أمهات المدن وحواضر الأمصار منها بلخ ونيسابور، وهراة وأصبهان، والبصرة ومرو، وأيضا مدرسة بآمل طبرستان والموصل (Al-Subkī, 1413h)، بل ويطرب أبو شامة في مدح مدارس نظام الملك ومدى حرصه على نشرها في أقاصي البلاد حتى جزيرة ابن عمر النائية، والتي لم يأبه لها أحد، بنى فيها مدرسة وهي التي تعرف بمدرسة رضي الدين فأعماله "الحسنة وصنائه الجميلة المذكورة في التواريخ لم يسبقه من كان قبله ولا أدركه من كان بعده". (Abū Shāma, 1997)

ولو دققنا النظر نلاحظ أن كلا من نيسابور والبصرة وطبرستان ونصف الأهواز عاصمة إقليم خوزستان في ذلك الوقت كانت عبارة عن مراكز لتجمع الشيعة، "ونيسابور قاعدة كل بلاد خراسان إذ ذاك في العلم" (Al-Subkī, 1413h)، فاختيار تلك الأماكن كان مقصودا حتى تفي بالغرض المطلوب وهو تقليص الفكر الشيعي واستبداله بالمذهب السنيّ وغلبته بتلك المناطق، وأخرى كانت بمناطق النفوذ والسيطرة السلجوقية. كما عمل نظام الملك على تدعيم المذهب السنيّ عن طريق دعم علمائه "فمن وجده في بلدة قد تميز وتبحر في العلم بنى له مدرسة ووقف عليها وقفنا وجعل فيها دار كتب". (Al-Aṣfahānī, 2004)

ولقد كان من نتائج هذا الدعم والرعاية للعلماء أن أضحوا ذوي مكانة عظيمة في البلاد، وبذلك نشأ تحالف بين رجال الدين العلماء وبين السلطة السياسية التي ترعاهم في ظل شخص نظام الملك، وكان لبعض العلماء وجاهة لدى السلطان، فوجد مثلا أبا إسحاق الشيرازي حين توجه حاملا شكوى الخليفة المقتدي من العميد أبي الفتح بن أبي الليث عميد العراق سنة 475هـ إلى السلطان ملكشاه ونظام الملك اللذان أكرماه وأجيب إلى جميع ما التمسه، ولما رجع للخليفة أهين العميد وكف يده عن جميع ما يتعلق بحواشي الخليفة.

وإذا رجعنا لجل ما كتب عن المدارس النظامية نجد ميزات أخرى تمثلت في مقياس اختيار المدرسين والمنهج التعليمي المتبع، وهو ما يشابه نمط الترشيح للتدريس في الجامعات في وقتنا الحالي، حيث إن نظام الملك لم

يكن يعين أي أحد للتدريس إلا بعد أن يستمع إليه ويتأكد من كفاءته العلمية والخلفية، وهذا ما أشار إليه عماد الدين الأصفهاني بقوله: "وكان نافذا بصيرا ينقب عن أحوال كل منهم ويسأل عن تصرفاته وخبرته ومعرفته فمن تفرس فيه صلاحية الولاية ولاه، ومن رآه مستحقا لرفع قدره رفعه وأعلاه، ومن رأى الانتفاع بعلمه أغناه، ورتب له ما يكفيه من جدواه. حتى ينقطع إلى إفادة العلم ونشره وتدريس الفضل وذكره، وربما سيره إلى إقليم خال من العلم ليحلي به عاطله، ويحي به حقه ويميت باطله". (Al-Aṣḫānī, 2004)

ومن أمثلة ذلك ما حدث مع الإمام الغزالي بعد وفاة شيخه إمام الحرمين (478هـ) حيث قصد مجلس نظام الملك، وكانت المجالس عموما لا تخلو من المناظرات الفقهية، والمطارحات الكلامية، ومجلس نظام الملك آنذاك "مجمع أهل العلم وملازمهم فناظر الأئمة العلماء في مجلسه، وقهر الخصوم وظهر كلامه عليهم، واعترفوا بفضله، وتلقاه الصاحب بالاعظيم والتبجيل، وولاه تدريس مدرسته ببغداد وأمره بالتوجه إليها" (Al-Dhahabi, 1413h.2006)

وكذا ما حدث مع أبي بكر محمد بن ثابت الحنفي حيث سمعه يعظ بمرور "فأعجبه كلامه، وعرف محله من الفقه والعلم، فحملة إلى أصفهان، وصار مدرسا بمدرسه بها، فنال جاها عريضا، ودنيا واسعة، وكان نظام الملك يتردد إليه ويزوره" (Ibn Al-Athīr, 1997). وروي أيضا أنه من دواعي توظيف الفقيه أبي القاسم علي بن الحسين الحسني الدبوسي تفوقه في مناظرة بينه وبين أبي المعالي الجويني، والتي عقدت في أصفهان بحضور نظام الملك. (Al-Subkī, 1413h)

أما الرؤى الفكرية والمذهبية التي أنيطت بتلك المدارس بتوجيه من نظام الملك فتمثلت في تعليم الفقه على المذهب الشافعي والعقيدة الأشعرية، إضافة إلى الحديث وعلمي اللغة والأدب والنحو، وهنا نقف قليلا لتوضيح صورة العصبية المذهبية السنية التي استفحلت في ذلك العصر، وكيف كان موقف نظام الملك ودور مدارسه في توجيهها وجهة صحيحة تخدم الهدف المنشود وتدعم الأمن الفكري والسياسي.

يرى الكثير من المؤرخين قديما وحديثا أن نظام الملك كان متعصبا للشافعية، كما يعزو بعض الباحثين أنه أراد من خلال تلك المدارس تدعيم المذهب الشافعي والدفاع عن العقيدة الأشعرية، ونقف على العديد من النصوص التاريخية التي تؤكد أن من شروط النظامية أن يكون كل من المدرس والواعظ الذي يعظ بها ومتولي الكتب على المذهب الشافعي، وبل وتعدى ذلك لأموال الأوقاف التي تصرف عليها فمن شرطها أيضا أن تصرف على أصحاب الشافعي أصلا وفرعا (Ibn Al-Jawzī, 1992)، يقول بن العديم: "سمعت القاضي أبا عبد الله محمد بن يوسف بن الخضر الحنفي قاضي العسكر رحمه الله، وقد جرى ذكر نظام الملك وميله إلى أهل العلم، يقول: كان نظام الملك يتعصب للشافعية كثيرا، فكان يولي الحنفية القضاء، ويولي الشافعية المدارس، ويقصد بذلك أن يتوفر الشافعية على الاشتغال بالفقه، فيكثر الفقهاء منهم، ويشتغل القضاء بالقضاء، فيقل اشتغالهم بالفقه ويتعطلون" (Ibn Al-'Adīm, n.d.) ومن الطرائف التاريخية تحول القاضي أبي الحسين بن أبي جعفر السمناني من المذهب الحنفي إلى اعتناق المذهب الأشعري وغالى فيه، وقال ابن الأثير معلقا: "وهذا مما يستطرف أن يكون حنفي أشعريا". (Ibn Al-Athīr, 1997).

ومن خلال الاطلاع على بعض الدراسات المعاصرة التي تناولت الحديث عن المدارس النظامية باعتبارها مشروعا إصلاحيا، نقف على جوانب النقد التي تناولت الحديث عن هذه النقطة وعن الأسباب الحقيقية من وراء تقييد المنهج الدراسي وفق المذهب الشافعي فقط دون غيره من المذاهب الفقهية الأخرى.

ومن تلك الدراسات ما كتبه محمد الناصر صديقي (2015) في بحثه المعنون بـ "المدارس النظامية: نموذجا للتعليم المؤدج في الحضارة الإسلامية" والذي يرى "أن تأسيس النظاميات وإشراف رأس الحكم المدبر عليها، إنما جاء لبناء منظومة تعليمية ذات توجه مذهبي يكرس أحادية العقيدة الرسمية للدولة ورفض الآخر، وإضافة إلى ذلك تدخل جهة الإشراف في كل شاردة وواردة في عمل المدارس والتدقيق في إطارها ومحتويات المادة المدّسة".

وإذا أقررنا بتعصب نظام الملك للشافعية والعقيدة الأشعرية فلا بد أن نذكر أولا موقفه من إشكالية التعصب المذهبي المذموم، ومسألة السب واللّعن التي كانت من القضايا الجوهرية التي اهتم بها اهتماما كبيرا عند توليه

الوزارة، ففي أيام السلطان طغرلبيك كان الوزير عميد الملك الكندري قد طلب منه وزين له سب ولعن الرفضة على المنابر فأذن له بذلك، غير أنه أضاف إليهم لعن الأشعرية مما أدى بهجرة الكثير من الأئمة والعلماء بلادهم ومنهم الجويني إمام الحرمين وأبي القاسم القشيري وغيرهم، وعندما تولى نظام الملك الوزارة أبطل السب واللعن على المنابر وانقطع التعصب، فرجع العلماء إلى أوطانهم.

ومن أبرز الفتن التي كانت ببغداد فتنه ابن القشيري الذي بالغ في التعصب للأشاعرة وهاجم الحنابلة، فطلب على إثرها الخليفة المقتدي بالله وولاة الأمر من نظام الملك التدخل لإخمادها وإبعاد أبي نصر القشيري عن بغداد، فأشار عليه بالرجوع إلى نيسابور مع الإكرام والتعظيم لشخصه، فرجع ولزم الطريق المستقيم.

وبعد هذه الفتنة خاطبه علماء الأشاعرة راغبين منه النصر ومحرضين إياه على الحنابلة، واصفين إياهم بأبشع الأوصاف، طالبين منه قمعهم وقطع دابرهم (خطاب الأشاعرة لنظام الملك نص تاريخي نادر ولم أعره عليه إلا عند ابن عساكر: (Ibn 'Asākir, 1404H). وفي سنة 470 هـ رد نظام الملك على خطابات أبي إسحاق الشيرازي حول الحنابلة، مبينا موقفه بوضوح تجاه تلك العصبية المقيتة فقال: "ورد كتابك بشرح أطلت فيه الخطاب، وليس توجب سياسة السلطان وقضية المعدلة إلى أن نميل في المذاهب إلى جهة دون جهة، ونحن بتأييد السنن أولى من تشييد الفتن، ولم نتقدم ببناء هذه المدرسة إلا لصيانة أهل العلم أو المصلحة، لا للاختلاف وتفريق الكلمة، ومتى جرت الأمور على خلاف ما أردناه من هذه الأسباب فليس إلا التقدم بسد الباب، وليس في المكنة إلا بيان على بغداد ونواحيها، ونقلهم عن ما جرت عليه عاداتهم فيها، فإن الغالب هناك وهو مذهب الإمام أبي عبد الله أحمد بن حنبل رحمة الله عليه، ومحله معروف بين الأئمة، وقدره معلوم في السنة، وكان ما انتهى إلينا أن السبب في تجديده ما تجدد مسألة سئل عنها أبو نصر القشيري عن الأصول، فأجاب عنها بخلاف ما عرفوه في معتقداتهم، والشيخ الإمام أبو إسحاق وفقه الله رجل سليم الصدر، سلس الانقياد، ويصغي إلى كل من ينقل إليه، وعندنا من تصادر كتبه ما يدل على ما وصفناه من سهوله يجتذبه والسلام". (Ibn Al-Jawzī, 1992).

وهذا الرد يبين بوضوح أن نظام الملك وإن كان قد تعصب للمذهب الشافعي وجعله المذهب المعتمد في المناهج الدراسية في مدرسته، غير أنه في حقيقته غير جاحف أو ملغٍ لبقية المذاهب الفقهية وموقفه هذا يدل على مدى موضوعيته تجاه تلك القضية وأن هدفه الأسمى هو تحقيق العدل بين الرعية، ودوره هو إخماد الفتن لا إشعال فتيلها.

وأضف إلى ذلك أنه بعد تلك الفتن منع الوعاظ من الجلوس للوعظ سنة كاملة، نظرا لقوة التأثير التي كان يتمتعون بها في التوجيه الفكري، ثم سمح لهم بالرجوع سنة 473هـ واشتراط عليهم الاقتصار على الوعظ فقط دون ذكر أي شيء من الأصول والمذاهب. (Ibn Al-Jawzī, 1992)

وهناك نص تاريخي آخر يثبت لنا عدله الذي تميز به تجاه تلك المواقف وسُمِّته نحو العلماء، وهو ما أورده لنا الذهبي في ترجمته لأبي إسماعيل الأنصاري، حين اجتمع أئمة الحنفية وأئمة الشافعية لدى السلطان ألب أرسلان أثناء قدومه هراة ومعه وزيره نظام الملك يشتكون من الأنصاري، ومطالبين إياه بالمنظرة في حضرتهم، "فاستدعاه الوزير، فلما حضر، قال: إن هؤلاء قد اجتمعوا لمناظرتك، فإن يكن الحق معك؛ رجعوا إلى مذهبك، وإن يكن الحق معهم؛ رجعت أو تسكت عنهم". (Al-Dhahabī, 2006)

ويتبع النص المذكور سابقا للذهبي حضور الأنصاري -بعد محنته ورجوعه إلى موطنه بلخ- للسلام على نظام الملك بوجود الفريقين فأرادوا سؤاله مرة أخرى عن سبب سبه للأشاعرة وأمره الوزير بالإجابة فأجاب بما كان يجب به في هراة، فما كان من نظام الملك إلا أن يبعث إليه بصلة وخلع فلم يقبلها وغادر مباشرة هراة.

من خلال ما سبق ذكره يتبين لنا حقيقة هذا التوجه المذهبي وفرضه في التعليم، أو بمعنى آخر أثره على المنظومة التعليمية آنذاك، فإقرار المذهب الشافعي كان دافعه شخصيا لنظام الملك من جهة، ومن جهة أخرى فإن دعمه للعقيدة الأشعرية كان له بعده الفكري والسياسي لتحقيق الهدف الأساسي من تأسيس المدرسة النظامية وهو مواجهة المد الباطني الإسماعيلي. ولا يمكن لنا بحال أن ندافع عن شخصية نظام الملك لتحديد منهج التدريس وفقا للمذهب الشافعي والأشعري وتقيدته في ذلك، أو نبرر هذا الاختيار لأنه لا يتوفر بين أيدينا

أي نص تاريخي يتبين من خلاله دوافع أخرى جعلت نظام الملك ينهج الطائفية المذهبية في المشرق الإسلامي، أو يغير وجهة النظر هاته.

وبعض النظر عن عقائد الأشاعرة والاختلافات الحاصلة بينها وبين جُل المذاهب في ذلك العصر فلسنا في معرض مناقشة تلك المسائل أو الخوض في الجدل المتعلق بها، فمن اللازم أن نقر بأن الفكر الإسماعيلي الذي تشعب بنظريات فلسفية متنوعة ومتفرقة وبراهين منطقية، لا بد له من مواجهة فكرية تتسم بنفس مستوى الفهم والقوة في استخدام العقل والمنطق.

ولتقريب هذا الرأي وتوضيحه نرجع لتاريخ الخلافة العباسية في عصرها الأول، فلما كانت تواجه تحديات فكرية وعقدية مثلتها عدة حركات كالزندقية والباطنية والبيانية والزيدية السياسية للدولة، نجد أن المعتزلة في بداية أمرهم هم من واجهوا تلك التحديات لأنهم كانوا الأقدر على ذلك، وكانوا ذوي مؤهلات علمية توازي خصومهم فنصروا الإسلام وحققوا للأمة أمنها الفكري بدعم من السلطة القائمة وبما يتماشى مع معطيات الإشكاليات المطروحة آنذاك، في حين كانت المذاهب الفقهية قد تكونت وفي أوج تطورها، وهذا لا يعني بحال غياب دور الفقهاء في مواجهة أولئك الملحدين، فقد قام الفقهاء بدورهم المنوط بهم، وإن لم يكن لهم دورٌ مباشرٌ في مناظراتهم والرد عليهم، فقد كان لهم دورٌ بارزٌ في حفظ دين الأمة وعقيدتها من عبث العابثين بها، ومجابهة البدع العالقة بها، وجهودهم في دراسة الحديث متناً وسنداً ومعرفة صحيحه من سقيمه، والتصدي للزنادقة الوضاعين وغيرهم من الكذابين أكبر دليل على ذلك، ولا يمكن لعاقل أن ينفي هذا الدور أو ينظر بعين النقص إلى أولئك الأئمة الأفاضل. (Seggani, 2010)

وعلى الرغم مما اتصف به علم الكلام من روح المواجهة والصبغة الدفاعية، وما قام به أفراد المعتزلة من دور فعال في الحفاظ على المنظومة الفكرية للأمة، إلا أنهم وللأسف الشديد وقعوا في الغلو والإسراف في الاستدلال العقلي، فبعد أن قاموا بدور البناء وتصحيح الفكر والسعي إلى تحقيق الأمن الفكري، قد ساهموا من حيث لم يدروا في ضعفة الأمن الفكري، حيث كان من الفادح أن أخطأوا في منهجهم وسياستهم بفرض آرائهم الدينية ووجهات نظرهم العامة بالقوة، بل ولجأوا إلى اضطهاد مخالفيهم دينياً من أهل السنة أصحاب مذهب

التسليم والتقليد، كل ذلك أنتج معارضة قوية لأرائهم الدينية، وأدى إلى ظهور علم كلام سني على يد أبي الحسن الأشعري. (Seggani, 2010)

وقد كان المعتزلة هم الذين بحثوا في الإسلام وتعليل آرائه وتعاليمه من منطلق العقل، في حين نجد أنّ طبقة الفقهاء، والمحدثين، والمفسرين قد خدموه من طريق النقل، والأمر نفسه يتكرر في عهد السلطة السلجوقية فالخضم الأول هو المذهب الإسماعيلي الذي تكوّن فكره وعقيدته وتطور في شكل أكبر حركة شيعية شهدها العصر، واستحدثت في عقيدته ما لم يكن متعارفاً عليه لدى العلماء وقتها، وتشبع بمفاهيم فلسفية متعددة ذات أساليب ميتافيزيقية معقدة. في حين أن المذاهب السنية كانت تعيش صراعاً فكرياً ضارياً سواء في علم الدين أو فيما عداه من مجالات الفكر الواسع، تميز بالعصبية المقيتة، مما أنتج أزمة عقدية كبيرة بين الأشاعرة والحنابلة، بسبب موقف الحنابلة المعادي لعلم الكلام، ونشوء تحالف بين الشافعية والأشعرية، وإذا كان المالكية والحنابلة والحنفية يمثلون التقليدية الشرعية فإن الأشاعرة وعدد غير قليل من الشافعية كانوا يمثلون العقلانية الدينية.

وأي عاقل أو قارئ مبتدئ سيرى أن أصحاب العقلانية الدينية هم الأصح والأقدر على مواجهة الفكر الإسماعيلي بالحجج والبراهين بغض النظر عن الهدف من وراء هذه المواجهة، وبغض النظر عن الميول الشخصية لأي مذهب من المذاهب.

نشطت المدرسة النظامية نشاطاً كبيراً فكانت أكثر المدارس تأثيراً وقوة وتعصباً، في ظل غياب مدارس منافسة لها، ولعلّ هذا أحد عوامل نجاحها، فمثلاً لم يعرف للحنابلة مدرسة إلا في بداية القرن السادس الهجري وهي مدرسة أبي سعد المخرمي بباب الأزج، وبعد وفاته سنة 513 هـ نُسبت وفُوضت إلى تلميذه الشيخ عبد القادر الجيلي الحنبلي. (Ibn Fadhl Allah, 1423h. Al-Dhahabī, 2003)

لقد كان لكل مدرسة من النظاميات ما يميزها عن غيرها وفقاً لما تملية الظروف البيئية والاجتماعية والدينية، ولعلّ أبرزها ذلك التنافس العلمي الذي حظيت به بسبب العلماء الذين يُدرّسون فيها، فكان الطلاب يرحلون ويقصدون مدرسة معينة لتفضيل عالمها عن غيره أو تعصباً له. وكان لكل عالم من العلماء طريقته الخاصة في

الشرح والتوضيح وبموجبها يفاضل الطلبة بينهم، وقد بين لنا هذا أحد أهل العلم فيما حكاه قائلا: "صحبت إمام الحرمين أبا المعالي الجويني بخراسان ثم قدمت العراق فصحبت أبا إسحاق الشيرازي فكانت طريقته أفضل من طريقة أبي المعالي، ثم قدمت الشام فرأيت الفقيه أبا الفتح فكانت طريقته أحسن من طريقتهما جميعا".
(Al-Subkī,1413H)

وقد كانت نظامية بغداد أكثر النظاميات صيتا وذيو عا إذ ضمت أفضل وأشهر العلماء وخيرة الطلاب، الذين ما إن تخرجوا منها حتى أصبحوا دعاة حمأة للدين في وجه المد الإسماعيلي الباطني، ومع أول يوم افتتحت فيه المدرسة- يوم السبت عاشر ذي القعدة سنة 459هـ - واحتفل بإنجازها بحضور الوجهاء والأشراف وكبار رجالات الدولة، يشرق اسم أول عالم من علمائها ومدرسيها وهو الشيخ أبو إسحاق الشيرازي والذي بنيت المدرسة برسمه وبموافقة منه. (Ibn Al-Jawzī, 1992, Al-Yāfī, 1997)

ويلاحظ من خلال التتبع التاريخي أن الحركة العلمية في ظل تلك النظاميات وصلت إلى أوج عنفوانها من حيث التعمق والانتشار والتأليف، ولقد أمدت العالم الإسلامي بعدد لا يحصى من العلماء وبثت نتاجها في حركة فكرية فعلية لجميع الحواضر الإسلامية، بل وحتى بلاد الأناضول.

لقد كانت الأطر النظرية والتطبيقية لمشروع نظام الملك الإصلاحية تنمي عن عقلية فذة مبدعة، وشخصية متوازنة في مكوناتها، جمع بين غزارة العلم ومهارة الإدارة، وحنكة السياسة، وتقرب من الرعية وإقامة العدل، فسعى إلى اختصار المسافة بين العلماء والسلطين، وألم بتحديات عصره واستقرأ أخطارها، وبدد جهود وأحلام الروافض وأعداء الدين، فقام بدوره المنوط به على أكمل وجه.

إن استراتيجية تأسيس المدارس النظامية التي قدمت نموذجا فريدا تميز بتطوير أسلوب التعليم بشكل كبير واتباع تقنيات وأساليب جديدة، ساهمت في الأنشطة التعليمية التي انتشرت في جميع أنحاء المجتمع الإسلامي، فاعتبرت بمثابة الجامعات في عصرنا الحالي، وأصبحت واحدة من أولى المؤسسات الأكاديمية الرسمية في التاريخ الإسلامي.

كما يطلق عليها في الكتابات الغربية مسمى الجامعة: يتمثل تأسيس جامعة النظامية في بغداد علامة بارزة في النهوض التربوي للمسلمين خلال العصور الوسطى. كانت نظامية بغداد بمثابة مؤسسة نموذجية في عالم الإسلام، وقد جذبت سمعتها العظيمة ومستوى التعليم العالي الطلاب والعلماء من جميع أنحاء العالم المعروف. ولقد اعتبر علماء العصر التدريس في هذه الجامعة المشهورة عالميا شرفا كبيرا. (Dilshada Akhtar, 2013)

أدى المثال الذي وضعه نظام الملك إلى مساهمة كل من الطبقة الحاكمة والمتففة في افتتاح العديد من المؤسسات التعليمية في جميع أنحاء العالم الإسلامي، وخلال القرن الحادي عشر الميلادي لم يكن هناك أي ركن من أركان العالم الإسلامي لا يحتوي على مثل هذه المؤسسات التعليمية.

ولقد أعقبها سير العديد من الدول واتتهاجها نفس نهج نظام الملك، خاصة فيما تعلق بسياسته في أعمال الوقف ومختلف أنواع الأعمال الخيرية كالزكاة والصدقة كمصدر لتمويل التعليم العالي في تلك الحقبة، ما ضمن حرية الدراسة والبحث العلمي، وأثمر كمًا هائلا من المصنفات في فروع العلوم الإسلامية التي أُلِّفت في القرون السادس والسابع والثامن والتاسع الهجري، والتي لا تزال شاهدة للآن على الثورة المعرفية التي أحدثتها عبقرية نظام الملك.

كما يثبت دعم الدولة لهذه المؤسسات أن الصراع كان أيديولوجيا بالدرجة الأولى، وأن الدولة السلجوقية جعلت نفسها حامية ومسؤولة عن إحياء السنة في جميع أنحاء إمبراطوريتها في محاولة للحفاظ على أيديولوجيتها الداعمة للدين والدولة، وقد مثل الغزالي هذا الصراع في مواجهة الباطنية فكانت هناك أهداف واضحة واحدة هي تأكيد بطلان سيادة الباطنية. (Muhammad Iqbal, 2017)

الخاتمة

يعد نظام الملك الطوسي من خيرة وزراء السلاجقة فقد بذل جهودا مضيئة للنهوض بالحركة العلمية وتجديدها، بتطويره نظاما تعليميا جديدا هدف بالدرجة الأولى إلى ترسيخ ماهية الأمن الفكري الإسلامي ودعمه من خلال مجابهة مهدهاته آنذاك بالقضاء على آثار الأفكار الشيعية والعمل على تقليص نفوذها مما يوضح أهمية دور الوزراء في الحياة الفكرية وتطويرها في ذلك العصر وإن كانت قد تميزت بما يتوافق مع مذهبهم الاعتقادي

والفكري، وبما يتماشى مع مصالحهم السياسية، كما يوضح أيضا دور حكام الدولة السلجوقية السنية الذين أخذوا على عاتقهم مكافحة المد الشيوعي، ومناهضة كل الفرق المبتدعة، فكان لهم جهد عظيم في إحياء دور السنة في حياة الأمة. وإن كانت تلك النظاميات قد تخرج منها جمهرة من العلماء، والدعاة، وزودت الجهاز الحكومي من دوائر القضاء والحسبة والاستفتاء بالموظفين ردحا من الزمن، وأسفرت عن انتصار واضح للمذهب السني، فجدير بنا اليوم أن نحتذي بتلك التجربة التاريخية والنموذج الإصلاحية السلجوقية بسبب الامتداد التاريخي والتشابه بين مهددات الأمن الفكري في القرن الخامس الهجري والوقت الراهن، وذلك أولا من خلال تبني حكومات الدول الإسلامية لمشروع الأمن الفكري ودعمه بخطة استراتيجية علمية عملية، وتكوين نخبة من المفكرين والباحثين القادرين على فهم واستيعاب الظواهر الاجتماعية والتغيرات الفكرية وإدراك مكامن الانحراف والانحرف فيها ومعالجتها لأجل وقاية وتحصين عقول الناشئة والشباب من الوقوع في الشبهات والانحرافات الفكرية بجميع مظاهرها، وثانيا عن طريق إعادة الدور الحقيقي للمؤسسات التربوية والتعليمية في ترسيخ العقيدة الصحيحة للمجتمع الإسلامي، وتنمية حس الولاء لله ولكتابه ورسوله الكريم وفق المنهج الوسطي للإسلام، مع تبيين خطر الأفكار المنحرفة وخطر الشيعة وبطلان عقائدهم.

REFERENCES

- Abū Al-Muẓaffar, Shams Al-Dīn Yūsuf bin Qizughlī. (2013). *Mir'āt al-zamān fī tārikh al-a'yān* (1st ed.). Dimashq: Dār Al-Risālat Al-'Ālamiyyah.
- Abū Shāma, Shihāb al-Dīn Abd-ar-Rahmān. (1997). *Al-Rawdatayn fī akhbār al-Dawlatayn al-Nūriyyah wa-l-Ṣālahiyyah* (1st ed.). Beirut: Mu'assasatu al-Risālah.
- Al- Maqdisī, Abū 'Abd Allāh Muḥammad ibn Aḥmad.(1991). *Aḥsan al-taqāsīm fī ma'rifat al-aqālīm* (3rd ed.). Cairo: Maktabat Madbūly.
- Al-Aṣṣfahānī, 'Imād ad-dīn Muḥammad ibn Ḥamed .(2004). *Tārikh dawlat Al-Saljūq* (1st ed.). Beirut: Dār Al-Kutub Al-'Ilmiyyah.
- Al-Dhahabī, Shams ad-Dīn Abū 'Abdillāh Muḥammad .(2003). *Tārikh al-Islām wa-Wafayāt al-Mashāhīr wa-al-A'lām* (1st ed.). Beirut: Dar Al-Gharb Al-Islāmī.
- Al-Dhahabi, Shams ad-Dīn Abū 'Abdillāh Muḥammad. (2006). *Siyar a'lām al-nubalā'*. Cairo: Dār Al-Ḥadīth.
- Al-Maqrīzī , Taqī al-Dīn Abū al-'Abbās. (1418h). *Al-mawā'iz wa al-i'tibār bi dhikr al-khuṭaṭ wa al-āthār* (1st ed.). Beirut: Dār al-Kutub al-'Ilmiyyah.
- Al-Subkī, Tāj al-Dīn 'Abd al-Wahhāb. (1413h). *Ṭabaqāt al- Shāfi'iyyah al- kubrā* (2nd ed.). Dār Hajar li al-Ṭibā'ah wa al-Nashr wa al-Tawzī'.

- Al-Ṭartūshī, Abū Bakr Muḥammad. (1872). *Sirāj al-Mulūk. Egypt: Min Awā'il Al-Makṭabāt Al-'Arabīyyah.*
- Al-Yafī'ī, Abū Muḥamad Abd Allah bin Sa'īd bin Ali .(1997). *Mir'āt al-janān wa -'iibrat al-yaqzān fī ma'rifat ma ḥadatha min ḥawādith al-zamān* (1st ed.). Beirut: Dār al-Kutub al-'Ilmiyyah.
- Awad-Kurkis. (1986). *Al-Kutub al-qadīma fī Al-'Irāq mundhu aqdam al-'uṣūr hattā sanat 1000 li al-hijrah* (2nd ed.). Beirut: Dār al-Rā'id al-'Arabī.
- Dilshada Akhtar. (2013). *Islamic perspective of education: A case study of Samarqand and Bukhara (14th to 16th Century).* Centre of Central Asian Studies University of Kashmir Srinagar J&K.
- Fayyad-Abdullah.(1972). *Tārīkh al-tarbiyah 'inda al-imāmiyyah wa aslāfihim min al-Shī'ah.* Baghdād: Mutba'at As'ad.
- George Makdis.(2015). *Nash'at al-kuliyat ma'āhid al-'ilm 'inda al-Muslimīn wa fī al-Gharb* (1st ed.). Egypt: Madārat li al-Abḥāth wa al-Nashr.
- Hajji Khalīfah Mustafā bin Abdallah. (1941). *Kashf al-zunūn 'an 'asmā' al-kutub wa al-funūn.* Baghdād: Maktabat Al-Muthannā.
- Hocini, M. A., Abdullah, M., & Bounama, F. The Qur'anic Aspects of Human Development with Special Reference to the Role of 'Aqīdah in Tafsīr al-Zilāl of Sayyid Quṭb: A Thematic Study. *EL-AFKAR Jurnal Pemikiran Keislaman dan Tafsir Hadis*, 22(2), (2020): 321-394.
- Ibn 'Asākīr, Thiḡat al-Dīn, Abū al-Qāsim. (1404h). *Tabyīn kadhib al-muftarī fī mā nusiba 'ilā al-Imām Abī al-Ḥasan al-Ash'arī* (3rd ed.). Beirut: Dār Al-kitāb Al-'Arabī.
- Ibn Al-'Adīm, Umar *Ibn* Ahmad Ibn Hibat Allah Kamal al-Dīn. (n.d). *Bughyat al-Ṭalab fī Tārīkh Ḥalab.* Beirut: Dār Al- Fikr.
- Ibn Al-Athīr, Abū al-Ḥassan Ali ibn Muḥammad. (1997). *Al-Kāmil fī al-tārīkh* (1st ed.). Beirut: Dār Al-kitāb Al-'Arabī.
- Ibn Al-Athīr, Abū al-Ḥassan Ali ibn Muḥammad. (n.d). *Al-lubāb fī-thazīb al-Ansāb* Beirut: Dar Ṣādir.
- Ibn Al-Jawzī, Abū Al-Faraj Abd Al-Raḥmān ibn'Ali. (1992). *Al-Muntẓam fī tā'rīkh al-'umam wa al-mulūk* (1st ed.). Beirut: Dār Al-Kutub Al-'Ilmiyyah.
- Ibn Al-Omranī, Muḥammad bin Ali .(2001). *Al 'Inbā' fī Tārīkh Al-khulafā'* (1st ed.). Cairo :Dār Al-Afāq Al-'Arabia.
- Ibn Baṭṭūtā, Abū Abdullah Muḥammad ibn Abī Abdullah. (1417h). *Tuḥfat al-nuzzār fī gharā'ib al-amṣār wa 'ajā'ib al-asfār.* Rebāt : Akādīmiyyat al-Mamlaka al-Maghribiyyah.
- Ibn Fadhl Allah, Shihāb al-Dīn Ahmad ibn Yaḥyā. (1423h). *Masālik al-absār fī mamālik al-amṣār* (1st ed.). Abū Dhabi: Al Majma' ath Thaḡāfī.
- Ibn Imad Al-Ḥanbalī, Abd Al-Ḥayy bin Ahmad bin Muḥammad Abū Al-Falāḥ. (1986). *Shadharāt al-dhahab fī akhbār man dhahab* (1st ed.). Beirut: Dar Ibn Kathir.

- Ibn Jubayr, Muḥammad ibn Aḥmad ibn Jubayr al-Kinānī. (1979). *Rihlat Ibn Jubayr*. Beirut: Dar Beirut li al-Tatbi' wa al-Nashr.
- Ibn Kathīr, Abū al-Fidā 'Imād Ad-Dīn Ismā'īl ibn 'Umar. (1986). *Al-Bidāyah wa-n-nihāyah*. Beirut: Dar Al- Fikr.
- Ibn Taghrī- Birdī, Jamāl Al-Dīn Yūsuf bin Al-Amīr Sayf Al-Dīn Abū Al-Maḥāsīn. (n.d.). *Al-Nujūm al-zāhirah fī mulūk Miṣr Wa Al-Qāhiraḥ*. Egypt: Wizārat Al-Thaqāfa wa Al-'Irshād.
- Karad Ali, Muḥammad ibn 'Abd al-Razzāq. (1983). *Khuṭat al-Shām* (3rd ed.). Dimashq: Maktabat Al-Nūwrī.
- Muhammad Iqbal Hasibuan. (2017). Academic freedom during Saljuq dynasty (Analysis of the Year 447-590 H / 1055-1194 AD). *International Journal of Humanities and Social Science Invention*, 6(3), 2319 –7722.
- Seggani Souheila. (2010). The intellectual security in the early Abbasid era (132H-232H). Master's thesis. Academy of Islamic Studies: University of Malaya, Malaysia
- Siddiq, Muḥamad Al-Nāsir. (2015). Al-Madaris al-nizāmiyyah namūdhaj li al-ta'lim al-mu'adlaj fī al-ḥadhārah Al-Islāmiyyah. *Journal of Education College Wasit University*, 1(20), 259–294.
- Zaydan, Jurji. (n.d.). *Tārīkh al-tamaddun al-Islāmī*. Egypt: Mu'assasat Hindāwī li Al-Ta'lim Wa Al-Thaqāfah.